يشاءها من الجن فهو إذاً من المسموحات لا الممنوعات، وما دام لم يرد نص في القرآن لنسخه ليس الحديث لينسخه حيث القرآن لا ينسخ إلّا بالقرآن لا سواه، إذاً فعمل الصور المجسمة لا محظور فيه، بل وعلّه محبور حيث يشاؤه سليمان.

أجل إن التماثيل المعبودة، المعمولة لعكوف العبادة، هي محرمة بنص القرآن وضرورة الأديان: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[1].

وعلى غرارها التماثيل التي تصنع لأجل تخليد أصحابها بعد موتهم احتراماً زائداً عما يرام، فإنها مكروهة على أشراف الحرمة، ولكن التماثيل ككل تمثال ليست محرمة، ولأن أصل الحرمة في اتخاذها ليس إلّا شائبة العبادة أم آئبتها، فحكمها واحد عبر الشرائع دونما تناسخ فإنه لزام التوحيد، وسليمان كان من أكمل الموحدين فكيف يبغي محرماً أو مكروهاً في حظيرة التوحيد وبحضره ربه الكريم المجيد!

فحين تتخذ تماثيل من الطغاة عن حالتهم البئيسة التي قضت عليهم إنذاراً للأخلاف، أم تتخذ تماثيل من التقاة عن حالتهم العزيزة تبشيراً لهم، فما هي - إذاً - إلّا تماثيل التبشير والإنذار، دون عكوف لها كأصنام.

أم حين تتخذ تماثيل للعبة الأطفال، بلا عكوف ولا تبشير أو إنذار، فما هي محرمة محظورة، مهما لم تكن محبورة.

وهنا أحاديث تروى بحق تحريم عمل الصور المجسمة والتماثيل ذوات الأرواح خاصة نخصصها بموارد المحظور لظاهر كالنص من آية التماثيل[2].

= «نقوش» ولم يكن من المتعود أن يعمل الصور المجسمة من غير ذوات الأرواح إلا حديثاً، فالآية ظاهرة كالنص في جواز عمل التماثيل لذوي الأرواح، وليس الحديث لينسخ القرآن أياً كان، فالأحرى ما فصلناه في المتن من تفصيل لراجح منه ومرجوح ومحرم والله أعلم.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

(٢) مضت هذه الأحاديث.

ثم ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ هي الجفان العظيمة كالحياض حيث الجابية هي حوض يرد فيه الماء فهي وإن عظيمة للأطعمة، ومن أين تملأ؟ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ضخمة في ثقلها وسعتها، راسية ثابتة في محلها لصعوبة حملها.

﴿. . . ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ لا - فقط - أن تقولوا شكراً، فالشكر في أصله من مقولة الأعمال، وليست الأقوال إلا حاكية عنها ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ عملاً، في الكثير من القلة المؤمنة الشاكرة قولاً، والشكور مبالغة الشاكر فلتكن بالغ الشكر. ثم وهنا ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ وليس «شكور» حيث التعريف يعني شكراً عملياً، فـ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ هنا مبتدأ مؤخر لتعريفه.

﴿وَقَلِيلٌ﴾ خبر مقدم لتنكيره، إذاً فـ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ عملاً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾.

أم أن ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ كمطلق الشكر وحتى قولاً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾ ثم من هذه القلة ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ كشكر مطلق يعم العمل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾ فهم - إذاً - قلة من قلة فمهما كان الشكور قولياً ثلة أمام هذه القلة، ولكنهم قلة أمام ﴿عِبَادِىَ﴾ الثلة، فأين قلة من قلة وثلة من ثلة؟![1].

(١) الدر المنثور ٥: ٢٢٩ - قال داود عليه السلام: يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني؟ فأوحى الله إليه نعم الضفدع وأنزل الله تعالى على داود عليه السلام: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبإ: ١٣] فقال داود عليه السلام: يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم علي ثم ترزقني على النعمة الشكر فالنعمة منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ قال: يا داود الآن عرفتني حق معرفتي وفيه أخرج ابن المنذر عن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس على المنبر وقرأ هذه الآية قال: ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود قيل: وما هن يا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العدل في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى وذكر الله في السر والعلانية وفيه عن إبراهيم التيمي قال قال رجل عند عمر: اللهم اجعلني من القليل فقال عمر: ما هذا الدعاء الذي تدعو به؟ قال: إني سمعت الله يقول: وقليل من عبادي الشكور فأنا أدعو الله أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر!

ثم ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ أياً كان تلمح لكثرته عِدة وعُدّة، ولحد يبلغ الشاكر شكراً بكل أبعاده في حياته! ومن ثم نرى ذلك العظيم العظيم، الكريم الكريم، القويم القويم، سليمان النبي الملك، الذي سخر له الإنس والجن وصُلب الكون ولكنه على عُظمه وملكه الذي لا ينبغي لأحد (٣٨: ٣٥):

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾:

وتلك من هيبة سليمان وهيمنته إن لم يجرؤ أحدٌ من جنوده من الجن والإنس أن يدنوه فيسألوه ما ذلك المكث الطائل، الذي تمضي فيه أوقات صلوات ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ فوقع الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ سؤال خاطر أم أي خاطر سائل ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ تلك الصغيرة الهزيلة التي تأكل الأخشاب ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ التي كان متّكئاً عليها.

وترى كيف المنسأة - فقط - تجعله واقعاً قائماً كما هو، وليست مُسكتها إلّا جانبية وعلى شرط المسكة من صاحبها، حيث يمسكها سناداً فتمسكه عماداً؟.

علّه لأنه كان جالساً على عرشه، متكئاً على منسأته، محفوفاً بما يسنده من جوانبه، فلما أكلت منسأته وارتخت - بطبيعة الحال - خر أمامه، إذ فقد سناده أمامه!

داية الأرض - هنا - هي الأرضة التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم سقوف المنازل الخشبية وأبوابها وقوائمها بشراهة وشراسة خطيفة، فلا تبقي عليها قائمة ولا تذر.

﴿... فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ إذاً فالجن لا هم أبناء الله حتى يُعبدوا حيث سُخروا لسليمان، ولا هم يعلمون الغيب حتى يستعملوه، قصة تقص عنهم ما خيِّل إلى أوليائهم.

وترى ذلك العمل بين يدي سليمان كان عذاباً مهيناً وهو خدمة تقدم للنبي الملك؟ أجل كان عذاباً مهيناً لشياطين الجن جزاءً بما كانوا يشيطنون، ذوقاً قليلاً من عذاب السعير، وأما مؤمنو الجن والإنس المستخدمين فلم يكونوا ليكلفوا لديه تلك الأعمال الشاقة المبرهة، إلا قدر المستطاع، فلم يكن العذاب المهين إلا لشياطينهم.

ثم ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ تلمح بطول مكوث سليمان ميتاً متكئاً على منسأته، فليست قضية سويعات، لا سيما وأن أرضة الأرض لا تسطع أن تأكل المنسأة ليوم واحد، إلّا أياماً طائلة، أم سنة كما يروى وإن كانت بعيدة[١].

(١) الدر المنثور ٥: ٢٣٠ - أخرج جماعة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: كان سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة ثابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا وكذا، فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء نبتت فصلى ذات يوم فإذا شجرة ثابتة بين يديه فقال لها: ما اسمك قالت: الخرنوب، قال: لأي شيء أنت؟ قال: لخراب هذا البيت فقال سليمان: اللهم اعم عن الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فأخذ عصا فتوكأ عليها وقبضه الله وهو متكئ فمكث حيناً ميتاً والجن تعمل فأكلتها الأرضة فسقطت فعلموا عند ذلك بموته فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين أقول تبين الإنس إنما حصل بما رأوا الجن طول هذه المدة في العذاب المهين فلم يكونوا ليعلموا الغيب.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

آيات سبع تعرض سبأً في مسرحٍ من حياة الفَرَح والتَّرح، إعراضاً عن الرب الغفور وطيبة البلدة، فابتلاء بسيل العرم، عرامة بعرامة ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

و﴿لِسَبَإٍ﴾ اسم رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة.. [1]

(١) الدر المنثور ٥: ٢٣١ - أخرج جماعة عن فروة بن مسيك المرادي قال أتيت رسول الله ﷺ... فقال رجل: يا رسول الله ﷺ وما سبأ أرض أو امرأة؟ - قال ﷺ: ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين=

فهم آباء قوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن بأرض خصبة وبلدة طيبة ما تزال إلى اليوم. منها بقية، وقد ارتقوا في سلم الحضارة ونضارة الحياة المادية. لحد لا قبل له، وقد تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي كانت تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً، فاختزنوا كميات هائلة من الماء وراء السد، سداً لحاجاتهم المرحة، وقد عرف باسم «سد مأرب».

و﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قد تعنيان ذلك الخصب والوفرة جانبي ذلك السد، وهما آية من آيات النعمة الربانية كأنها خارقة العادة بين القرى المجاورة لها، أو منقطعة النظير!.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ حيث رزقكم إياه ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ قالاً وحالاً وأعمالاً ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي - ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ في وفر النعم ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾. بوفر الغفر والكرم، على ما أنتم عليه من تقصير.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن ربهم وشكره حيث أخذتهم العزة بالإثم، وبدلوا نعمة الله كفراً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ عَرماً بعزم! يجرف ويعرم في طريقه كل صغيرة وكبيرة، وكل حجارة صخرة صلبة، فحطّم سدهم وانساحت مياههم سيلاً على سيل فلم يعد الماء يخزن حيث جفت كما جفوا، واحترقت الجنتان كما أحرقوا، فتبدلت جناتهم ويلات، صحراء قاحلة تتناثر فيها الأشجار الخشنة البرية:

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: فالجنات التي كانت تأتيهم بكل نعمة غزيرة أشكالاً وألواناً، أصبحت لا

= تشاءموا فلخم وجذم وغسان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار فقال رجل: يا رسول الله ﷺ وما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة.

تأتيهم إلّا خمطاً: شجر الأراك أم كل ذي شوك، وأثلاً يشبه الطرفاء، وشيئاً قليلاً من سدر، فليأكلوا شائكاً، وطرفاء لا ثمر لها، وسدراً قليلاً!.

فتلك إصابة لهم في مأكلهم ومن هنا إلى مسكنهم الطريف:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾:

«... قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا بأنعم الله عزوجل، وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله، فغير الله ما بهم من نعمة والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم فغرق قراهم وخرب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنتيهم...»[1].

﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ هي القرى الشامية، و﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ هي الباهرة في ممرهم، الزاهرة ببركاتها، قريبة المنازل، متقاربة المحطات، مقدرة السير، محدودة المسافات ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ تقديراً متناسباً متناسقاً لا يخرج المسافر من قرية إلا ويدخل في أخرى مثلها، فلا تختص أمنة السير فيها بالنهار، بل ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾!

وما ألطفها مسافات في تلكم السفرات السافرات، قراها الظاهرة هي لصق بعض، لا يخلد بخلد المسافر أنه ناءٍ عن منزله إلا نزهة ولذة.

ويبدو أنها كانت لهم نعمة سابغة لاحقة للسابقة، وكان الله أبدلهم إياها بجنتيهم امتحان الامتهان فكفروا ثانية:

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾:

(١) في الكافي بإسناده عن سدير قال سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن الآية...

فقد غلبت عليهم الشقوة ولم ينتفعوا من النذارة الأولى، فإنما دعوا الله دعوة حمقاء ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ كأنهم يرفضون النعمة بعد النقمة، أم يستاؤون من رحمة بعد رحمة، فما داؤهم وما دواؤهم إلّا إجابة الدعوة ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ في هذه الدعوة ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ قبل هذه الدعوة بما بغوا وطغوا، فاستجيبت دعوتهم البتراء الخواء إذ كانت بطراء حمقاء ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث عنهم في كل نادٍ كأمثولات لكل حمق في عمق كيف يدعى الرب لإزالة النعمة إلى نقمة؟ ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ عن كل رباط وملصق فلم يبق لهم وصل إلّا إلى فصل، في أوطانهم وأسفارهم، حيث بطروا النعمة ولم يصبروا على المحنة.

لقد فرق سبأ ومزق أيادي سبأ في أنحاء الجزيرة مبدّدي الشمل، وعادوا أحاديث الهزء على الألسنة بعد أن كانوا أمة حضارية غالية المصدر، عالية المورد، ذات وجود في الحياة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ صبراً في البأساء وشكراً في النعماء، بل وصبرا في النعماء والبأساء وشكراً في النعماء والبأساء!.

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾:

«لقد» تأكيدان اثنان أن ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ في أبعاد بِعاد، حيث أراهم ظنه صادقَ اليقين، أم وجده صادقاً عليهم كأنهم لا يشكون في صدقه فيعاملونه عمل اليقين، بما صدّق قالته عند الله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾[1] وقالته الأخرى ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[2] حيث

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

المتبوع خير من التابع، ومن التابعين من هو أكفر من إبليس! فقد وقع العباد في مربع من فخ إبليس دون نجاة إلا بصادق الإيمان! وهم في «عليهم» كل العباد لمكان الاستثناء إذ لم يكن في سبأ فريق من المؤمنين، مهما كان المحور لذلك التصديق هم سبأ وأضرابهم فإنهم التجوالة العليا لرحلات الشيطان، ثم و«عليهم» تدلنا على أن مربع التصديق كان «عليهم». ومن ثم لم ينج المؤمنون كلهم ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم صادقو الإيمان، وأما البسطاء، وأما أتباع الشهوات، فهم سيقة الشيطان مهما كانوا مؤمنين: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[١] فالقلة القليلة من المؤمنين مخلِصين ومخلَصين هم الذين لا يتبعون إبليس في أحلك الظروف وأهلكها، وليس ذلك التصديق الكاذب اللعين بسلطان له عليهم: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٢] وكما يصدقه هو إذ قضي الأمر: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣].

إنه لا سلطان له على أي إنس أو جان، لا حجةً تقبلها العقول، ولا قوة تسيِّر ذوي العقول، وإنما مكراً وخداعاً وكذباً، ولماذا الله جعل له سلطان المكر والخداع؟ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾....

و«نعلم» هذا كما في أشباهه هو من العَلْم العلامة السمة، لا العِلم المعرفة، فلكي يَسِم الله ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ بسمة الإيمان، ويعم ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ بوصمة اللاإيمان، لم يكن الله ليصد عنهم سبيل الشيطان.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

هذا! ولكي يقضى على فوضى الادعاءات الجوفاء، ويقف ويوقف كلَّ مدَّعٍ عند عمله في تجربة من سلطان الشيطان! ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ لا يفوت منه فائت ولا يفلت منه فالت، فليس اتباع الشيطان فلتة خارجة عن حيطة الحفيظ، فإن حريته في تصديق ظنه حفيظ على صدق المؤمنين وكذب الكافرين، حفيظ على كافة الموازين في كل تقوى وطغوى!

وإنما يختص من بين شَعب الإيمان واللاإيمان هنا الآخرة، لأن الإيمان بها هو الرادع الأصيل عن اتباع الشيطان، فرب مؤمن بالله وبرسله لا يؤمن بالآخرة لا يردعه ذلك الإيمان كما تردعه الآخرة!.